

مقاربة سوسيو - أنثروبولوجية لعملية التحضر في القصر دراسة حالة قصر « أظوى » بأدرار (توات)

العقبي نزه

جامعة بسكرة (الجزائر)

مولاي محمد

جامعة أدرار (الجزائر)

مقدمة:

لدراسة التحضر وتغير بنية المجتمع الجزائري لا بد من الاهتمام بطبيعة العلاقات السائدة، الأسرية، القرابية، علاقات الجيرة، وما طرأ عليها من تغير دون إغفال حجم الأسرة والاتجاهات الجديدة، فكل دراسة تتناول المجتمع يجب التركيز فيها على البناء والنظام الاجتماعي، وأن دراسة التحضر تعني الكشف عن آثاره وهذا يستدعي البحث في بناء المجتمع سابقا، ثم ملاحظة ما طرأ عليه من تغير في الوقت الحالي.

والتحضر من العمليات التي تدفع المجتمع نحو التغير وذلك من حيث أنه يمس البناء الاجتماعي فيعمل على تغيير في العلاقات الاجتماعية الأسرية والقرابية ويغير القيم والنظم الاجتماعية.¹ والتغير الذي يحدث في المجتمعات لا يقف عند حد المظاهر المادية فحسب، بل يتعدى ذلك إلى القيم والمثل والعادات وطرق التفكير، كما يتضمن طرق مختلفة لتنظيم الحياة الاجتماعية وطرق التنشئة الاجتماعية والعلاقات وتغير اتجاهات أفراد المجتمع وقيمهم وعاداتهم وسلوكهم.

فالقصور في ولاية أدرار تصنف اليوم ضمن المدن العتيقة وهي الآن تشهد تحولات عميقة مست جوهره بفعل مؤثرات داخلية وخارجية أدت إلى زعزعة ذلك الانسجام الذي تميزت به من قبل وأحدثت قطيعة بين القيم مع حركة التاريخ وتعاقب الأحداث فرضت على هذه القصور التكيف مع التحولات الحديثة، وتعتبر فئة الشباب من الفئات التي تبرز فيها سمات التغير الاجتماعي، على اعتبار أن الطبيعة النفسية والاجتماعية لهاته الفئة لديها نزعة نحو التجديد والتغيير، مما يجعلها في تعارض وأحيانا في صراع دائم مع كبار السن المتمسكين بالقديم، حول كثير من المواضيع من بينها: آداب الزي واللباس، نوعية التعليم والوظيفة، قضايا الزواج.

المجتمع القصور المقصود هنا بالدراسة يمثل المجتمع المحلي القاطن في منطقة الجنوب الغربي من الوطن، يتشكل من جماعات تشترك في القيم الثقافية والبساطة، وهناك أيضا مجتمعات قصور مناطق الجنوب الشرقي، والتي تختلف نوعا ما عن مجتمعات قصور الجنوب الغربي، والمجتمع الذي نقصده بالدراسة هو مجتمع منطقة توات التاريخية الواقعة في ولاية أدرار، والتي ينحدر غالبية سكانها من المغرب العربي، وهي البربري والعربي والزنجي²، وقد استوطن أحفاد هؤلاء بالإقليم التواتي على فترات متعاقبة وفي ظروف مختلفة وعن طريق الاختلاط امتزجت عناصر السكان وانصهرت في مجتمع متجانس في العادات والتقاليد، علاوة على أن الدين الإسلامي جعل منه مجتمعا متأخبا، ويتميز المجتمع القصور بالطبقية في تركيبه الاجتماعي التي يتأسس عليها هذا المجتمع، وتحتل طبقة الأشراف أعلى مكانة في الهرم، وتليها طبقة المرابطين، ثم تأتي طبقة العرب الأحرار، وفي آخر الهرم نجد طبقتي العبيد والحراطين يتقاسمون نفس المكانة، ويقوم هذا التقسيم على الأصل والمولد والمكانة الاجتماعية للفرد.³

¹ محمد أحمد الزغيبي، التغير الاجتماعي، ط3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص 34.

² فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 45.

³ فرج محمود فرج، نفس المرجع، ص 46

الهندسة المعمارية للقصر في القديم تميزت بمظاهرها العربية الإسلامية، من خلال الآثار التي لا تزال موجودة في بعض القصور الأثرية العتيقة، خاصة منها القصبات القديمة، وتصاميم بعض المساجد والمنازل، وقد حافظت الهندسة المعمارية المحلية للمنطقة على مميزاتها رغم ما أدخل عليها من تعديلات وتحسينات تماشياً مع متطلبات الهندسة المعمارية الحديثة.

أما بالنسبة لتصميم البناء في القصر فإنه عادة ما يكتفي فيه الفرد القصورى بخبرة البناء الحرفي أو الخبرة الذاتية إذا كان صاحب المسكن بناء لذا تلعب الخبرة والجهد الذاتيين في الغالب الدور الرئيسي في إنجاز مساكن القصر العشوائية، حيث يأتي أسلوب الجهد الشخصي في الإنجاز في المرتبة الأولى، وهو جهد قائم على تعاون جميع أفراد الأسرة القادرين على العمل، كما يلجأ أحياناً إلى حرفي في البناء في مراحل معينة من عملية الإنجاز، خاصة عند الإفتقار لبعض أدوات البناء أو لقلة الخبرة في بعض ميادين البناء.

يتميز نمط البناء في القصر بقلة التجانس فيما بين مساكنه، حيث تنتشر فيه المساكن التقليدية الطوبية إلى جانب بعض البناءات الأسمنتية الحديثة التي تمزج الجزء القديم للقصر وهي ذات دور واحد (أرضي)، مما يجعلنا نلاحظ هناك تباين في البناء بالقصر ويرجع هذا التباين بالدرجة الأولى إلى التفاوت الإقتصادي والاجتماعي بين سكان القصر، والقصور المتواجدة بمنطقة أدرار عرفت ثلاثة أنماط عمرانية متداخلة فيما بينها داخل النسيج الحضري الواحد القصر مشكلة فسيقاً عمرانية واجتماعية مترابطة، تتحكم فيها مجموعة من العوامل الطبيعية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية والإقتصادية.

والأنماط العمرانية الموجودة في القصر هي في أساسها منقسمة إلى ثلاثة أنواع مختلفة من حيث الشكل الهندسي والحضري وأيضاً حتى من حيث طبيعة الحياة أو العلاقات الاجتماعية في كل نمط وتتمثل فيما يلي:

- النمط العمراني التقليدي القديم (القصبية).
- النمط العمراني التقليدي الحديث.
- النمط العمراني الحديث أو العصري.

التغير في القصر:

وإذا نظرنا إلى واقع المجتمع الجنوبي الجزائري اليوم عامة والمجتمع القصورى خاصة، فإننا نجد يتوفر على نمطين اجتماعيين أساسيين، هما نمط المجتمع الريفي الذي ينتشر سكانه في القصور والتي تمثل مناطق زراعية ورعوية نائية، بالإضافة إلى نمط المجتمع الحضري المتمثل في سكان المدن أو الحواضر الصغيرة أو المتوسطة وهي التي توجد بها مقرات الدوائر والبلديات، والتي تعرف نمواً متزايداً.

النسبة المئوية الصحيحة	نسبة التكرار	التكرار	الإجابات
82,0%	82,0%	164	نعم
4,0%	4,0%	8	لا
14,0%	14,0%	28	ربما
100%	100%	200	المجموع

الجدول رقم (19): يبين ما إذا كان هناك تغير في القصر.

ومن خلال هذا الجدول يتضح لنا أن نسبة كبيرة من العينة المبحوثة تؤكد أن هناك تغير يحد في القصر نتيجة عملية التحضر التي يعرفها بنسبة 82,00% يقولون نعم أن هناك عملية تغير، بينما نسبة 04,00% تقول أنه ليس هناك أي تغير يحدث على مستوى القصر، وما نسبته 14,00% تقول ربما فيه تغير وربما لا يوجد هناك تغير وهذا راجع ربما إلى الاختلاف أو التباين في نسب التحضر من جانب إلى آخر.

التغيرات العمرانية.

حركية فضاء القصر:

لقد انصرف دارسوا السكان نحو هذه الظاهرة باعتبار أنها تمثل أحد أنواع الهجرة وأنها عاملا له فعاليته في تغيير مكان الإقامة أو التحول أو التغيير الفيزيقي لفرد أو جماعة من منطقة اعتادوا على الإقامة بها إلى منطقة أخرى داخل حدود بلد واحد، وهي أحد أوجه الهجرة الداخلية، والتي هي ظاهرة المقصود منها أنها عملية انتقال الأفراد أو الجماعة من منطقة إلى أخرى داخل المجتمع، والهجرة الداخلية قليلة التكاليف ولا تعرض القائمين مشاكل كبيرة متعلقة بالدخول والخروج، وتتميز بأنها تأخذ تيارات واتجاهات عكسية، بمعنى أن مناطق الجذب السكاني تطرد السكان إلى خارجها.

وانطلاقا من هذا التفسير لهذا النوع من الهجرة نلاحظ أن نفس الطرح ينطبق على ما يحدث مؤخرا في جميع قصور ولاية أدرار، حيث أنه بجوانب كل القصور يوجد نطاق عمراني عصري حديث النشأة، له عدة مميزات حضرية تتمثل في أنه مخطط وبنائيات حديثة أسمنتية مائة في المائة ومرافق حضرية هذا إلى جانب طبيعة علاقات إجتماعية جديدة مختلفة عن العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين الأفراد والجماعات في النطاق القديم للقصر وعلاقات جوارية تقوم على أسس ومعايير أخرى غير التي كانت تقوم عليها علاقات الجوار في القصر القديم.

النمط العمراني الملائم للوضعية المناخية:

لجدول رقم (23): يمثل نوع السكن الملائم للوضعية المناخية.

النسبة المئوية الصحيحة	نسبة التكرار	التكرار	الإجابات
11,5%	11,5%	23	طوبي قديم
49,5%	49,5%	99	طوبي حديث
39,0%	39,0%	78	أسمنتي
100%	100%	200	المجموع

من خلال الجدول يتضح أن المسكن الطوبي بنوعيه القديم والحديث هو النمط السكني الملائم للوضعية المناخية التي تتميزها الحرارة الشديدة في فصل الصيف، والبرد القارص في فصل الشتاء، ونظراً لأن مادة البناء هي الطوب والطين فإن هذه المادة تمتاز بخاصية أنها لا تمتص أشعة الشمس، مما يجعل الفضاء الداخلي للبيت لا يتأثر بالحرارة العالية في الصيف والبرودة أيضاً في الشتاء، لذا فقد أكد مبحثنا عندما سألناهم أي الأنماط العمرانية ملائم للوضعية المناخية، فقد كانت أعلى نسبة هي طوبي حديث بـ 49,5% خاصة وأن هذا النمط في الآونة الأخيرة أدخلت عليه تعديلات فيما يخص شكله ومواد بنائه مما جعله يجمع بين ما هو قديم وما هو حديث، بينما السكن الأسمنتي جاء في المرتبة الثانية بعد الطوبي الحديث بنسبة 39% وهذا النمط من السكن العصري يعرف رواجاً كبيراً في الآونة خاصة عند فئة الشباب والمقبل منهم على الزواج فالشباب الذي يريد أن يقبل على الزواج لابد عليه أن يبني مسكن أسمنتي مستقل بذاته حتى وأن كانت ظروفه لا تسمح له بذلك فإن الشباب عليه الانصياع لمنطق التباهي والافتخار الموجود في الوسط الشباني حتى يظهر مكانته ومقدرته، ثم أن هذا المسكن الأسمنتي أصبح يعرف التواجد الواسع في الوقت الحالي مع توفر الوسائل التكنولوجية الحديثة كأجهزة التبريد، مما أدى ربما إلى تراجع الإقبال على السكن الطوبي خاصة من فئة الشباب، بينما نجد أن النمط السكني القديم لم يعد يعرف أي إقبال بالرغم من أنه الأنسب مقارنة بالأنماط الأخرى

بحيث أن في هذا النمط مواد البناء محلية 100% والمسكن متلاصقة والأزقة ضيقة ومسقفة مما يجعل درجة الحرارة الداخلية في البيوت غير مرتفعة في الصيف والمحافظة عليها منخفضة شتاءً.

إن لكل نمط عمراني المشكلة للقصر إيجابيات وسلبيات من الناحيتين الاجتماعية والطبيعية، أما عن النمط الذي يعطي صورة أحسن من الناحية الشكلية مثلا فقد تختلف الآراء وتتعدد كل حسب طبيعته وميوله الشخصي، أما فيما يخص الفئة التي خصصناها للبحث والدراسة فهي ترى بأن القصر يظهر في صورة أحسن في النمط العصري المتسع أين تكون الأزقة متسعة والسكنات العصرية وخاضعة للتخطيط، والمرافق الضرورية متوفرة وشروط النظافة كذلك عكس الحياة في النمطين التقليديين القديم والحديث، لذا فإن نسبة 55,50% من الفئة المبحوثة ترى بأن النمط العصري المتسع يمثل الصورة الأحسن للقصر، بينما ترى نسبة 29,50% أن النمط التقليدي الحديث هو الذي يمثل الصورة الأحسن من الناحية العمرانية لأنه ربما أن هذا النمط يجمع بين ميزتي النمط التقليدي القديم والحديث، في حين ترى ما نسبته 15,00% فقط من الفئة المبحوثة أن النمط التقليدي القديم المتمثل أساسا في "القصبة" أنه يعطي الصورة الأحسن للقصر وهذه النسبة ربما منطقية ومتوقعة خاصة وأن هاته القصبات أصبحت عبارة عن أطلال هجرها أصحابها بسبب الوضعية المتردية التي أصبحت تؤول إليها إما بفضل العوامل الطبيعية كالأمطار والرياح أو بفضل التخلي عنها إلى ما هو أفضل في الحياة العصرية خارج أوصار القصبة.

وضعية القصر حاليا من الناحية العمرانية:

الجدول رقم (26): حول الوضعية العمرانية الحالية للقصر.

النسبة المئوية الصحيحة	نسبة التكرار	التكرار	الإجابات
12,0%	12,0%	24	منظم
29,0%	29,0%	58	غير منظم
59,0%	59,0%	118	نوعا ما
100%	100%	200	المجموع

من خلال ملاحظتنا المباشرة للقصر يظهر لنا على أنه عبارة عن فسيفساء تشكلها المباني الطوبية الممزوجة بالمباني الأسمنتية خاصة مع اقتحام هذه الأخيرة للسكنات الطوبية، سواء كان ذلك بإرادة القصوريون أنفسهم أو بتدخل الدولة من أجل تنمية المحيط الداخلي للقصر وهناك سياسة انتهجتها البلديات تعرف بسياسة تزيين المحيط، وهي العمل على تهديم السكنات الطوبية القديمة وتعويضها بأخرى أسمنتية وخلق فضاءات واسعة بداخل القصر، لكن هذه السياسة وللأسف شملت حتى "القصبات" في بعض القصور على الرغم من أنها تعد إرث ثقافي مادي وروحي في نفس الوقت، ومن خلال الجدول رقم (07) الذي يمثل وضعية القصر من الناحية فقد رأيت نسبة 59,00% من العينة المبحوثة أن القصر نوعا ما منظم من الناحية العمرانية لأنه يحتوي على ثلاثة أنواع من الأنماط العمرانية التقليدية بنوعيه القديم والحديث وكذلك العصري كما سبقت الإشارة إلى ذلك غير أن ما يجعل القصر يظهر على أنه غير منظم أو نوعا ما منظم هو أن هاته الأنماط الثلاثة تكون متداخلة ومتشابهة فيما بينها داخل النسيج العمراني للقصر الواحد، بحيث نرى أن كثير من الأفراد المقيمين في الفضاء السكني القديم المتكون من المباني الطوبية يعملون على تهديم بيوتهم الطوبية وإعادة بنائها بالأسمنت بالطريقة العصرية، كما أن السكنات الطوبية تتخلل المباني الأسمنتية في الفضاء العمراني الحديث النشأة في امتدادية القصر، مما يجعل هذا الأخير يظهر في شكل صورة فسيفسائية تشكلها المباني الطوبية والأسمنتية.

النمط العمراني السائد:

إن القصور حالياً من الناحية العمرانية نجدتها في فضاءها السكني مقسمة إلى نوعين من الأنماط السكنية بشكل واضح، لأن النمط السكني القديم (القصبة) لم يعد سائد وعرف هجرة تامة من طرف ساكنيه، وأصبح مآل هاته القصبات أن تتحول المنازل التي هي ملك لأصحابها إلى إسطبلات لحيواناتهم ومخازن لتخزين الأعلاف والمحاصيل الزراعية، أما مساجدها أصبحت قبلة سنوية يقصدها سكان القصر أثناء المناسبات كإحياء مثلاً فيها ليلة القدر في رمضان، أو تبقى بعض بيوتها التي كان يسكن فيها أفراد شهد لهم بالتقوى والصلاح والبركة قبلة تزار وتقام فيها بعض العادات في الأعراس وبعض المناسبات الأخرى المختلفة، هذا عن النمط القديم القصبة أما عن النمط الطوبي الحديث الممتد عن القصبة فقد عرف هذا النمط انتشار كبير في النطاق القديم للقصر وهو يحتل مساحة معتبرة من القصر ويسكنه الأغلبية من سكان القصر الواحد، بدأ يعرف هذا النوع بعض التراجع في الوقت الحالي بدخول ثقافة البناء بالأسمنت، حيث أن هذا النوع من البناء العصري عرف إقبال بشكل كبير عند الشباب، وهو ممتد عن الثاني، ويكون الفضاء العام في هذا النطاق خاضع للتخطيط، ويحتوي على بعض المرافق الحضرية، والروابط الاجتماعية فيه تختلف عن ما كانت عليه في النمط التقليدي والتقليدي الحديث، بسبب الاختلاف في المعايير والأسس التي تقوم عليها علاقات الجيرة، والتحول الذي عرفته الأسرة القصورية، وعلاقات الزواج والمصاهرة بين الأسر.

النسبة المئوية الصحيحة	نسبة التكرار	التكرار	الإجابات
13,0%	13,0%	26	طوبي قديم
42,0%	42,0%	84	طوبي حديث
45,0%	45,0%	90	أسمنتي
100%	100%	200	المجموع

الجدول رقم (27): يمثل نوع السكن السائد في القصر:

فمن خلال الجدول الذي يمثل تساؤلنا حول نوع السكن الذي يسكن فيه المبحوثون وجدنا نسبة 45% من العينة المبحوثة تسكن في مسكن أسمنتي بينما ما نسبته 42% يسكنون في مساكن طوبوية حديثة، نلاحظ أن النسبتين متقاربتين في حين أنه في الفترة الحديثة أن الأفراد يقبلون بكثرة على البناءات الأسمنتية وفي مقابل ذلك نجد عزوف كبير وخاصة من طرف فئة الشباب على البناء بالمادة المحلية الطوب على الرغم ما لهاته المادة من خصائص موافقة لطبيعة المناخ السائد في المنطقة.

التغيرات الاجتماعية في القصر:

التغير في بنية الأسرة القصورية (من الممتدة إلى النووية):

تذهب علياء شكري في دراستها، إلى أن الأسرة قد تطورت من أشكال كبيرة إلى ممتدة، وإلى أشكال أصغر فأصغر، فالأسرة الممتدة في شكل نظام إجتماعي، وهي كما توضح علياء شكري: "عبارة عن تجمع تلك الأسر النووية، ورابطة أجيال متتابعة في خط الأب أو خط الأم"، يميز في الغالب كبر حجمها وشدة إنتماء أعضائها، مع إرتكازها على أساس إقتصادي، وإذا كان النظر إلى الأسرة الممتدة من منظور ما تقدمه لأفرادها من إمكانيات جاهدة حافظت بشيء من المتانة على الألفة والإلتفاف حول الذات، فإن التحولات الكبرى بفعل التغيرات الاجتماعية والإقتصادية قد قلصت من الوظائف التي كانت تؤديها الأسرة الممتدة في الدول الصناعية وبالتالي تعد عاملاً مساهماً في إخفاء هذا النمط في حين ظل سائداً في دول العالم الثالث.

الأسرة أو العائلة داخل القصر نجدها دائما تميل إلى زيادة حجمها، لما لذلك من أهمية اقتصادية واجتماعية في نفس الوقت، وكثرة عدد أفراد الأسرة في حد ذاته مثل أعلى وفخر لها
الجدول رقم (28): طبيعة الأسرة في القصر.

النسبة المئوية الصحيحة	نسبة التكرار	التكرار	الإجابات
17,5%	17,5%	35	كبيرة الحجم (من 07 أفراد وأكثر)
60,5%	60,5%	121	متوسطة الحجم (من 03-06 أفراد)
22,0%	22,0%	44	صغيرة الحجم (أقل من 03 أفراد)
100%	100%	200	المجموع

من خلال الجدول يتبين لنا أن أغلب الأسر في القصر ذات طبيعة متوسطة بنسبة 60,5%، أي أنها ليست كبيرة الحجم (ممتدة) ولا صغيرة (نووية)، فالأسرة بالقصر من خصائصها الجمع بين نمطين من أنماط الأسرة حيث تجمع بين النووية والممتدة في آن واحد، فهي نووية كوحدة إجتماعية إنتاجية وذات إستقلالية في مجالها السكني، وهي ممتدة أيضا في نفس الوقت من حيث العيش في كنف العائلة الكبيرة والإستفادة من مزاياها خاصة على صعيد التضامن والتعاون، ويتجلى ذلك بوضوح في البناء القرابي لمجتمع القصر والتقسيم الإجتماعي لمجاله الجغرافي.

ما يعادل 65% عائلة من مجموع السكان بقصر "أطوى" هي عبارة عن عائلات ليست نووية بصفة مطلقة وإنما يمكن أن نقول عنها شبه نووية إذا ما رجعنا إلى الصفة التي وضعها المختصون لطبيعة العائلة النووية (الصغيرة) بأنها تتكون من الزوجين ومن طفل إلى ثلاثة أطفال، وعندما نلاحظ الأسرة في القصر المدروس أو جميع قصور المنطقة نرى بأنها لا تنطبق عليها صفات الأسرة النووية ولا صفات الأسرة الممتدة، حيث أن الفرد في القصر عندما يرغب الزواج أول ما يفكر فيه هو بناء بيت مستقل عن بيت الأبوة لكن هذه الإستقلالية تبقى نسبية حيث أن الزوجة تقوم بوظائفها في بيت حماتها أي بيت الأبوة الخاص بالزوج رفقة إخوته وأخواته إلى جانب الوظائف الخاصة بها وبزوجها في بيت الزوجية المستقل، والزوج أيضا يشارك الإخوة في النفقة على العائلة ككل سواء كانوا متزوجين أو غير متزوجين في الدار الكبيرة، وإن كان الإخوة صغار يعمل الأخ الكبير على إعالة وتربية إخوته رفقة أبيه وتكون النفقة على الكبار وعندما يكبر الصغار ويتزوجون يشاركون في النفقة وتكون النفقة جماعية، ويجتمعون في أوقات الغذاء والعشاء أين يتم التشاور في مختلف الأمور الخاصة بالعائلة وتناقش كل كبيرة وصغيرة تهم العائلة ومحيطها خلال الفترة التي يجتمع فيها الأفراد لتناول الغذاء أو العشاء، أين توزع كل المهام والوظائف على مختلف أفراد العائلة كل حسب استطاعته، وهكذا تكرر العملية كل يوم، وهذه الروح الجماعية تبقى مستمرة ما دام الأب الأكبر على قيد الحياة، وبمجرد وفاة هذا الأب ينفصل الأولاد وينفرد كل واحد منهم بحياته الخاصة تماما، وبهذا تأخذ العلاقة الإجتماعية منحى آخر داخل أفراد العائلة الواحدة وتصبح إن صح القول مناسباتية لأن العائلة تجتمع فقط في المناسبات مثلا في عرس أحد الأقارب أو إزدياد مولود ما أو حتى وفاة فإن العائلة تعود إلى صورتها السابقة ويعود التضامن والروح الجماعية لكن سرعان ما تزول تلك الروح بانقضاء تلك المناسبة.

وهناك ميزة أخرى للأسرة الصغيرة القصورية أنها تعتمد إلى تشجيع النسل والحث على إنجاب الكثير من الأبناء وهو ما يختلف وطبيعة الأسرة النووية الحقيقية التي يكتفي فيها الزوجان من واحد إلى ثلاثة أطفال فقط حيث أن غالبية الأسر تتكون من ستة أفراد فما فوق، وهو ما يوضحه الجدول التالي الذي يشمل 200 شخص من مجتمع البحث ينتمون إلى أسر مختلفة.

العلاقات الاجتماعية في مجتمع القصر:

العلاقات الجوارية:

إن الفرد داخل مجتمعه في القصر يحس نفسه أنه الجماعة الاجتماعية التي يتكون منها القصر، فرغم تعدد الفئات الاجتماعية والقبلية بالقصر إلا أن العصبية التي تغطي هي تلك التي تدفع الأفراد بدافع الإنتماء إلى فضاء القصر وكل مكوناته البنوية، وبذلك تتحول بحكم الإنتماء إلى ذلك القصر عصبية إلى درجة أن "الأنا" يصبح "نحن" ودرجة أن "نحن" يصبح "الأنا"، و"نحن" هنا تدخل على مجتمع القصر الواحد، فهاته العصبية تجعل الأفراد ملتحمون لكي يدافعون عن انتمائهم لهذا القصر بكل ما أوتوا من قوة ووسائل.

لكن الغالب في القصر أن الجورة تكون عفوية وتلقائية ولا تراعى فيها أية أبعاد وتمثلات تجعل الفرد ينتقي المجموعة التي يمكن مجاورتها، وخاصة الأبعاد التقليدية المرتبطة بالفئة الاجتماعية أو القبيلة أو رابطة الدم أو ما شابه ذلك، إنما يكون هذا التخيير يقوم على أسس أخرى إما القرب من الحقل الزراعي باعتباره له أهمية اقتصادية، أو أسس ذات طابع حضري متعلقة باتساع المكان والموقع الإستراتيجي بالنسبة للعمل... وبهذا تكون علاقات الجوار أساسها مجال الإقامة الموحد وهو القصر في فضائه العام.

لذلك نجد أن روابط الجوار في قصر أطوى تأخذ في بعض الأحيان طابعا جدليا محتما فيما بينها باعتبارها روابط مفتوحة ومنكيفة، و بين روابط القرابة التي يفترض أن تكون علاقة مغلقة غير مختزقة، في هذه الحالة يظهر وضع المرأة بالقصر على الواجهة وذلك لكون أن علاقات "جوار الداخل" والتي نقصد بها علاقات الجوار الأسرية هي علاقات غالبا ما تشكل الهامش الحيوي الذي تنتشط فيه الروابط النسائية من داخل البيوت بامتياز هذا على خلاف علاقات "الجوار من الخارج"⁴ والتي ينفرد بها الرجال وحدهم والتي غالبا ما يكون الشارع والفضاءات العامة مسرحا لها⁵، وهي ضعيفة وأحيانا ظرفية إذا ما قورنت بنظيرتها عند النساء فهي علاقات مستمرة وقوية.

فالحياة اليومية للقصر لا تكاد تخلو من أحداث ومواقف يكون فيها الجوار مسرحا مفضلا لخلق فرص تدعيم التعايش الاجتماعي (La sociabilité) بين الجيران فمثلا ظاهرة إجتماع الرجال على صينية الشاي أمام أو في المنزل أو البستان مرتين أو ثلاثة مرات أحيانا في اليوم ودعوة الجار لجاره لشرب الشاي معه بدون مناسبة، وإجتماع النسوة في المساء وهن يقمن بنسج الطبايق أو غزل الصوف، أو ممارسة أنشطة أخرى خاصة بهم كالغسل جماعة أو أثناء مناسبة صنع الكسكس، كل هذه النماذج وأخرى دالة على أهمية مد جسور الرابط الاجتماعي وتقويتها.

خلاصة القول أن دراسة الجوار بالقصر تكشف لنا عن الأدوات الموظفة في إنتاج الروابط الاجتماعية، بمعنى الوسائل المادية الرمزية المشاركة في بنية السلوك التبادلي كما تكشف لنا عن ليونة الفعل التجاوري الممتد في عدة مساحات إجتماعية تكاد تشمل كل فضاء القصر، فهو تارة يتعايش مع منطق القرابة، وتارة يتفاوض معها فيشاركها أدوارها ووسائلها، وتارة أخرى يحل محلها وينزع المبادرة من رابطة الدم أو القرابة البدائية في تسيير السلوك العام.

⁴ أخذ مفهوم "الداخل والخارج" من بيار بورديو عند دراسته للبيت القبائل، أنظر، - Esquisse d'une théorie de la pratique -

⁵Pierre Bourdieu, *Esquisse d'une théorie de la pratique*, suivi de trois études d'ethnologie Kabyle, Genève, Librairie Droz, 1972 P 459.

طبيعة البنية الاجتماعية للقصر:

الجدول رقم (36): يبين طبيعة البنية الاجتماعية حسب رأي العينة المبحوثة.

النسبة المئوية الصحيحة	نسبة التكرار	التكرار	الإجابات
27,3%	26,5%	53	متماسكة
20,6%	20,0%	40	غير متماسكة
52,1%	50,5%	101	أحيانا
100%	97,0%	194	المجموع
	3,0%	6	الغير معبر عنها
	100%	200	المجموع

من خلال الجدول يتضح لنا أن أغلبية المبحوثين ينظرون إلى أن البنية الاجتماعية للقصر أحيانا متماسكة وأحيانا أخرى غير متماسكة بنسبة 50,5% بينما ترى ما نسبته 26,5% أنها متماسكة، في حين ترى الأقلية من المبحوثين بنسبة 20% بأنها غير متماسكة، وهذا طبعا راجع إلى أن المجتمع في القصر لا يزال يحتفظ بنفس الأنماط والقيم والسلوكيات التقليدية التي تتجسد في داخل بناءه مما يجعله مجتمع يظهر في شكل لحمة أو كتلة إجتماعية متماسكة في أغلب الأحيان، إذا ما استثنينا بعض الأوقات والمناسبات التي يخرج فيها المجتمع بالقصر عن الطبيعة الحقيقية لبنائه الإجتماعي، لكنها تبقى ظرفية فسرعان ما يعود المجتمع إلى صورته العادية.

الزواج الخارجي: ظهر هذا النوع من الزواج في المجتمع القصورى كنتيجة لعدم التساوي في مسألة الزواج بين الفئات المكونة للمجتمع داخل القصر، وهذا النوع من الزواج نجده يقتصر بصفة جلية على السود من الحراطين والعبيد أكثر من البيض، فإن وجد عند البيض فإنه يكون خارج حدود القصر فقط ويشمل نفس المجتمع المحلي الأدراري، بينما عند السود فإنه يكون من خارج المنطقة ككل وخاصة مناطق الشمال، وهذا النوع من الزواج ظهر أيضا كإعكاس للواقع المعاش ورد فعل على القيم والمعايير التي تحكم علاقات المصاهرة بين أفراد المجتمع القصورى، والواقع يقول أن انتشار هذه الظاهرة وخاصة في الآونة الأخيرة عند شباب فئتي الحراطين والعبيد جاء نتيجة لمجموعة من العوامل أهمها: إما للرفض الذي يتلقاه دون شك ممن يتجرأ ويحاول التقرب من عائلات من ذوي البشرة البيضاء بغية إقامة علاقة مصاهرة، وهو ما يتنافى تماما مع الأعراف والعادات السائدة. وإما رغبة البعض الآخر من شباب فئة الحراطين من تجاوز هذا الواقع باللجوء إلى الزواج الخارجي بهدف التخطيط لإستراتيجية هدفها القضاء على اللون الأسود وبالتالي القضاء على التفرقة المبنية على أساس اللون بين أبنائهم وأبناء البيض مستقبلا، ومن ثم على المدى البعيد العودة إلى مسألة زواج السود بالبيض من باب آخر، وهو ما يمكن أن نقول أنه مستحيل لأن المجتمع متشبث كثيرا بقضية الأصل مهما كان لون البشرة، وبالتالي فالقضية هنا ليست قضية لون بشرة وإنما قضية أصل وانتساب، بل هي كذلك مرتبطة بالفئة والمكانة الاجتماعية للفرد وليس اللون أو الكفاءة، أو المستوى العلمي أو الإقتصادي للشخص، لأن اللون الأسود قد يشترك فيه الأفراد من مختلف الفئات، والشخص الذي ينتمي إلى فئة الحراطين أو العبيد مثلا مهما بلغ مستواه العلمي من الدرجات العلمية ومهما وصلت كفاءته الإقتصادية أو المادية فإنه يستحيل عليه التزوج من فئة أكبر منه في المكانة الاجتماعية (شرفة، مرابطين، عرب أحرار)، ومما يساعد على الإستمرارية في هذا الموقف هو تماسك هذا المجتمع وصغر حجم المجموعة الواحدة ومعرفته لبعضه البعض.

والأعراس الجماعية التي يجذبها كثيرا شباب مجتمع القصر تعد هي الأخرى وخاصة في الآونة الأخيرة موعدا هاما لإظهار إنقسام المجتمع إلى فئتين أو ثلاثة في الغالب الأعم. فالبيض يقيمون أعراسا جماعية مع البيض وكذلك

السود، وقد يكون للبيض انقساماً كذلك فالشرفاء يقيمون أعراساً جماعية بمفردهم، والعرب كذلك، وقد أصبحت كل فئة من الفئات المذكورة سابقاً تتحفظ في مشاركة الفئة الأخرى في الأعراس جماعياً خوفاً من بعض المواقف والتصرفات أو الوقوع فيما لا يحمد عقباه، غير أنه قد يبدو هذا الانقسام من جهة أخرى في الأعراس أمراً طبيعياً إلى حد ما، حيث أنه إضافة إلى التمايز الموجود في معظم شؤون الحياة، فهناك أيضاً تمايز واختلاف في بعض العادات والتقاليد وطقوس الإحتفال بالأعراس بين الفئات الاجتماعية المكونة لمجتمع القصر.

تأخر سن الزواج:

إن هذه الظاهرة حديثة الظهور في المجتمع القصورى ولم تكن موجودة من قبل، حيث أن الأسرة وكما تقدم من قبل كانت تهم بالإسراع في تزويج أبنائها وبناتها بمجرد دخوله السنوات الأولى من البلوغ والتكفل بالنفقة عليهم، ويعيش الزوج وزوجته مع الأبناء في داخل الأسرة الكبيرة والعمل على التربية والنفقة بشكل جماعي، لكن وبعد تحول نمط الحياة من التقليدية إلى العصرية الأمر الذي أدى إلى تفكك بنية الأسرة بتحولها من مركبة إلى نووية واختفاء الروابط القرابية المبنية على الدم والنمو الفكري لدى الفرد القصورى وتحول نمط المعيشة من الناحية الاقتصادية، أصبح المجتمع القصورى يعرف تأخر في سن الزواج عند الفئة من الشباب من كلا الجنسين، ولو اكتفينا فقط بفئة بحثنا المتكونة غالبيتها من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 20-40 سنة ومن خلال الجدول رقم (37) الآتي والذي يبين نسبة المتزوجين حسب الفئات العمرية التي قمنا بتحديددها، فإنه يظهر لنا أن الأغلبية من الفئتين العمريتين الأولى (16-25) والثانية (25-35) هم من العزاب عكس ما كان متعارف عليه في القديم فإن الشاب لا يمكنه أن يتجاوز سن 25 سنة على الأكثر وهو من دون زواج، وهو أمر كان يعاب عليه الشاب، وحتى إن كانت إمكانياته محدودة فإن الأفراد من أقرابه أو أصدقائه أو حتى أفراد آخرين يتسابقون من أجل مساعدته على الزواج وإخراجه من مرحلة العزوبية.

نتائج الدراسة:

يستهدف البحث التحضر في المجتمع القصورى دراسة أنثروبولوجية كون أن هذا المجتمع لا يزال من المجتمعات المحافظة على الكثير من عاداتها وتقاليدها، فحاولنا أن نقترح تحليلاً موضوعياً لأهم الإنعكاسات المترتبة على هذا المجتمع من جراء عملية التحضر ونوع العلاقات الاجتماعية، بعد حركة الخروج من القصر وذلك بالوقوف على حياته اليومية.

ينكب بحثنا على الفرد داخل فضاء القصر الداخلي والخارجي في إطار علاقاته الاجتماعية في المحيطين أو النمطين التقليدي والعصري، فنحن أمام مجتمع متميز وعلينا النظر إليه على أن أفرادهم سكان أصليين للمنطقة ولهم ثقافتهم الخاصة وأسلوبهم الموحد في الحياة وفي التصرفات والأنماط والالتزامات إلى غير ذلك.

وخلال محاولتنا لتشخيص تلك العلاقات كان التمييز بين وضعيتين الأولى تتمثل في العادات والتقاليد التي يتمسك بها الفرد والتي تحصل عليها بواسطة عوامل مكتسبة، أما الوضعية الثانية تتمثل في التغيير الذي يطرأ على سلوكيات الفرد وتصرفاته من خلال الحركية في المجال والتي تقوده إلى تنظيم جديد لتصوراته.

إذن فالمحيط يفرض نفسه ويساهم في تكوين أنماط معينة من التصورات كشكل من أشكال التكيف وعندما تتكون تلك التصورات تصبح تساهم بدورها في تغيير المحيط والفضاء المعاش، فالفرد هو الذي يصنع فضائه الذي يتناسب مع تصورات واحتياجاته الخاصة كما يحاول من جهة أخرى أن يتكيف هو نفسه مع فضاءه الجديد.

وعلى هذا الأساس كانت أهم النتائج التي توصلنا إليها هي، أن المجتمع القصورى بالفعل بدأ يعرف دينامية كبيرة في شكله الفيزيقي والاجتماعي خلال السنوات الأخيرة، إلا أنه يحتفظ بعلاقاته التقليدية، لكن هذا لا يمنعنا من

القول أنه لا توجد تغيرات على مستوى العلاقات الاجتماعية التقليدية، وإنما نقول أن هناك تغييرات بوتيرة ضعيفة وبحدة أقل من تلك التي عرفتتها شبكة العلاقات الاجتماعية لنظيراتها في مدن الشمال مثلا.

كما توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى العوامل التي أدت إلى نشأة القصور وتطورها والأسباب التي أدت إلى تأخر حدوث التحضر بها، إلى جانب أهم العوامل التي أدت إلى إفتتاح القصر ونموه وتحول شبكة العلاقات من تقليدية إلى عصرية، وأهم ما يميز هذه المجتمعات ذات الخصوصية العمرانية والاجتماعية.

ومن خلال تحليلنا للمجتمع القصورى بشكل عام، والدراسة الميدانية بشكل خاص إستنتجنا أنه برزت أنواع جديدة من العلاقات والروابط الاجتماعية بشأن الشباب والأسر والزواج... وهذا كنتيجة لتلك التحولات والتغيرات التي تمس المجتمع القصورى، وكل المخلفات والآثار التي يشهدها المجتمع، من جراء عملية التحضر وكذا التجديد الجيلي الذي تعرفه بالإضافة إلى التطور الهيكلي (العمراني) والبنائي (الاجتماعي)، وكل تلك التطورات التي مست مستوى التصورات والتمثلات الشبانية وإدراكاتهم، ويتجلى ذلك بحب التميز والتميز الذي يبذونه، والذي قد يرجع إلى عملية التحضر أو الحضرية التي لا زالت تشق طريقها في المجتمع القصورى أو بالأحرى الجزائري ككل، لكن وبالرغم من هذا نجد بأن الشاب الحضري المتطلع أو الحديث، لا يبدي رغبة ولا إرادة حقيقية في الانفصال أو القطيعة مع تلك الأنماط التقليدية في السلوكات، والتصورات والرود الفعلية التقليدية، رغم انغماسه، ومعايشته للثقافة الحديثة، فهذا الشاب يظهر على أنه يسجل حضوره في إطار مسعى إمتدادي، مستفيداً ومستلهماً مسعاه من جيل المؤطرين، وذلك بالحفاظ على النمط التصوري المحلي التقليدي، ومحاولة إعادة إنتاجه والتفاوض بشأنه ولو بأشكال جديدة، كل هذا بحثاً عن بدائل يجدها في انتهاجه لإستراتيجيات تمكنه من الإندماج الثقافي.

كما توصلنا من خلال دراستنا هاته إلى أن نمط الحياة الحضرية انتشر في القصور بشكل واسع بعد أن أصبح يشمل نسبة كبيرة من السكان وتوسع فضاءها العمراني وانفتاحها على العالم الخارجي والتأثر بهذا الانفتاح على مستوى جميع الأصعدة والمجالات.

كما كشفت الدراسة عن المسار الذي يتخذه التحضر في أطراف القصر وسرعته وأنماطه، وعوامله ومصادره مما أدى إلى ديناميكية إجتماعية أدت إلى تغيير سريع شمل مجتمع القصر في بنائه وعلاقاته الإجتماعية. ومن بين أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة هي أن التحضر في القصر أحدث عدة تغيرات أثرت في حجم الأسرة وطبيعة العلاقات بين الأفراد والأسر، وبالفعل لقد حدث هذا التغيير بسرعة فائقة بتسارع وتيرة التحضر في القصر بداية من العقدين الأخيرين فقط.

ومنه فقد حان الوقت لنسأل أنفسنا من جديد في شكل تساؤلات أخرى سنتفتح بدون شك لنا أو لغيرنا من الباحثين الطريق لمواصلة البحث والتقصي أكثر حول واقع المجتمع القصورى، ونفض الغبار على الجوانب الغامضة فيه وتتبع كل التغييرات التي يعرفها هذا المجتمع بالدراسة العلمية، حتى يتسنى لنا فهم المجتمع الجزائري ومحيطه.

وعلىنا جميعا تكثيف الدراسات الأنثروبولوجية والسوسولوجية المعمقة والهادفة حول مثل هاته المواضيع الهامة أو غيرها، التي تدفعنا إلى الحديث عن التطورات وكيف ستكون علاقاته الإجتماعية إذا انفصلوا تماما عن القصر وانتقلوا إلى الفضاء العصري، ليس فقط المجتمع القصورى وإنما أي مجتمع آخر يشاركه نفس الخصوصية الإجتماعية، وحتى نصل إلى هدفنا علينا كباحثين من أبناء هذا المجتمع أن ندرس ماضي أو تاريخ مجتمعنا، ونحلل حاضره حتى نستطيع التعرف أو التنبؤ بما سيحدث مستقبلا.